العراق

التركة الدامية للحرب النفطية

تصاعد الصراع الطائفي يهدد بتدخل الدول المحيطة

Judy Beishon, from The Socialist, weekly paper of the Socialist Party (CWI England & Wales)

في وقت غزو بوش وبلير الكارثي والجنائي للعراق عام 2003، حذر الحزب الاشتراكي واللجنة الدولية للعمال (CWI) من انه قد يؤدي الى تفكك العراق والي حرب طائفية رهيبة كما التي تجري الآن وتلعب أمام أنظار العالم.
وضعت الإمبريالية الأمريكية والبريطانية الأساس لما يجري ونواجه ليس بصداما واحدا، ولكن عددا من امثال صدام، وصعود تنظيم مشابه للقاعدة من نوع المنظمات الارهابية مثل تنظيم الدولة الإسلامية في العراق وبلاد الشام (إيزيس) التي تجتاح شمال العراق اليوم . تطور الأحداث يهدد وقد يؤدي إلى هزة في المنطقة بأسرها، مع عواقب وخيمة وربما مأساوية للسكان.

لتبرير حرب عام 2003 والاحتلال اللاحق - التي قتل فيها أكثر من نصف مليون عراقي، بالإضافة إلى الآلاف من قوات التدخل - ادعى بوش وبلير أن تخليص العراق من أسلحة الدمار الشامل (WMD)، ووضع أساس للديمقراطية. لم تكن أسلحة الدمار الشامل موجودة، ولم يكن اهتمامهم أبدا الديمقراطية – بل كانت الثروة النفطية الكبيرة في العراق وتأثيرهم في منطقة الشرق الأوسط. في سعيهم لتحقيق أهدافهم، فإنهم قاموا بتهيئة الظروف لفترة طويلة للصراع العرقي والطائفي الدموي.

الإطاحة بالدكتاتور صدام حسين و 'اجتثاث البعث' التي نفذت، ورأى المسلمون السنة إزالتهم من جهاز الدولة والوظائف. ولكي تواجه المقاومة الشاملة لاحتلالها وهزيمة المتمردين السنة، لجأت الإمبريالية الأمريكية إلى الطائفية وسياسة 'فرق تسد' وفرضت سيطرة حكومة فاسدة من الشيعة، والتي عملت علي ان يسوء الإنقسام أكثر.

إيزيس قامت بالسيطرة على الفلوجة في يناير كانون الثاني والآن الموصل - ثاني أكبر مدينة في العراق – و يعتبر هذا كارثة من قبل الحكومة الأمريكية لأنه يسترجع بشكل فعال ما تم من قبل من طرد الميليشيات السنية من تلك المدن من قبل مشاة البحرية الامريكية فيما وصفت بانها اعتداءات وحشية ضمن الحرب الإحتلالية التي قادتها الولايات المتحدة.

الآن الإمبريالية الأمريكية ضعفت بحق في الشرق الأوسط بعد سلسلة كوارثها في سياساتها الخارجية، والمعارضة الشاملة لها في منطقة الشرق الأوسط وفي داخل أرضيها ضد تدخلاتها. انتخب أوباما لرئاسة الولايات المتحدة لإعلانه التعهد بإنهاء الحروب الفاشلة في العراق وأفغانستان، لذلك فقد قام بسحب القوات الامريكية من العراق في عام 2011، وبعد ذلك ادعى أن قتل الولايات المتحدة لأسامة بن لادن في باكستان قد دمر القواعد الأساسية لتنظيم القاعدة. ثم واجه أوباما العام الماضي مرة أخرى بضغط جماهيري منعه من قصف قوات بشار الأسد في الحرب الأهلية السورية. ومنع كامرون في بريطانيا أيضا من ان يسير على هذا الطريق.

نتيجة لهذا التاريخ، لا كامرون ولا أوباما يفكر في إرسال أعداد كبيرة من القوات البرية مرة أخرى إلى العراق. لكنه مقياس لمدي الحذر الذي يري الاستراتيجيين الامبرياليين به مكاسب الميليشيا السنية بالرغم من أن أوباما يقوم بتعزيز إمدادات الأسلحة والمعدات العسكرية الثقيلة للجيش العراقي ويدرس إمكانية قصف جوي للمناطق التي تسيطر عليها إيزيس. ولكن الغارات الجوية، إذا نفذت، ستكون لها نتائج عكسية، في إلحاق الضرر و إراقة دماء المدنيين الذين لا شك أن يضربوا، وعمليات القصف في أفغانستان تقف شاهدا علي ذلك.

انتفاضة السنيين

أقسام من الجيش العراقي ما يقارب مليون جندي قوي – مدربون ومجهزين من قبل الولايات المتحدة وبريطانيا بما يصل

قيمته إلي 30 بليون دولار- تفككت في مسار هجومها و دفعت بقوة من إيزيس تقدر بأقل من بضعة آلاف. في اتخاذ الموصل، وهي مدينة من مليوني شخص، وعدد من المدن، بما في ذلك تكريت، واستكملت إيزيس وبمساعدة من انتفاضات من داخل الاقلية السنية للسكان التي عانت من الكثير من التمييز والإيذاء في ظل بدايات الحكومة التي فرضت بواسطة الولايات المتحدة التي يقودها الشيعة بقيادة نوري المالكي.

وكانت أفراد الأمن البعثي السابق من نظام صدام حسين المخلوع من بين أولئك الذين انضموا إلى الهجوم. وفي الوقت نفسه استخدمت قوات البيشمركة الكردية الأزمة إلى ضم مدينة كركوك لأراضيهم، ورأووها كعاصمة للدولة الكردية.

تركت الحكومة العراقية مشلولة، وعمليا ليس لديها أي تحكم في جميع أجزاء شمال العراق، غير قادرة حتى على الحصول على النصاب القانوني في البرلمان من أجل اتخاذ التدابير الطارئة. خروج أكثر من نصف مليون لاجئ من الموصل ومناطق أخرى استولي عليها خوفا من غارات القصف الحكومة، إيزيس، أو كليهما.

واحدة من المفارقات الكبرى في الوضع الحالي هو أنه في مصلحة كل من الإدارة الأميركية وعدوها اللدود، النظام الإيراني الثيوقراطي، دعم حكومة المالكي التعيسة. لذلك كانت منزعجة النخبة الإيرانية إزاء محنة حماية الشيعة في بغداد إذ أنها بعثت بسرعة الجنرال سليماني إلى بغداد للمساعدة في تعيين متطوعيين من الميليشيات الشيعية وقوات الجيش الحكومي التي يمكنها الدفاع عن المدينة وغيرها من الأماكن القريبة.

هذا هو ذل آخر لقادة الولايات المتحدة - في حاجة إلى التعاون مع نظام مكروه تمت معاقبته بقسوة بالعقوبات وعلي أياديه كان لديهم الكثير من الخسائر في القوات أثناء احتلالهم للعراق. ومع ذلك، لتبرير التحدث إلى إيران، علق السناتور الجمهوري الأميركي ليندسي غراهام: "لماذا نحن نتعامل مع ستالين؟ لأنه ليس سيئا كما هتلر. يجب أن نجري مناقشات مع ايران للتأكد من أنها لا تستخدم في ذلك فرصة للسيطرة على أجزاء من العراق".

مستلم آخر لسم الادارة الامريكية فقد قامت قوات بشار الأسد في سوريا، أيضا بمساعدة المالكي من خلال إطلاق بعض الضربات ضد قواعد إيزيس في سوريا. وكان الأسد سابقا قد غض الطرف عن الكثير من عدوان إيزيس في سوريا لأنه كان موجها أساسا إلى الاستيلاء على الأرض من الميليشيات الإسلامية الأخرى التي كانت في طليعة قتال نظام الأسد.

بغداد

وقد أعلنت إيزيس والميليشيات السنية الأخرى التي تغزو بغداد والمدن المقدسة، من الشيعة والمدن المختلطة في الجنوب منه هي من بين أهدافها، ولكن يبدو من غير المحتمل أن يتمكنوا من النجاح بسرعة في هذا نظرا لإختلال ميزان القوى الذي حدث. تم تنشيط الميليشيات الشيعية، مع تدفقات جديدة إليها، بما في ذلك جيش المهدي التابع لمقتدى الصدر الذي كان متورطا في محاربة الاحتلال بقيادة الولايات المتحدة . وذكرت ان القوات الإيرانية تقدم دعم لهم .

في الموصل وغيرها من المناطق ذات الهيمنة السنية التي اجتاحتها إيزيس، كان ينظر للجيش العراقي الذي يسيطر عليه الشيعة بانه اداة قمعية يجري استغلالها من قبل حكومة تنتهج أجندة طائفية ضد الغير شيعة في المجتمع .كانت هناك تقارير موثوق منها تفيد بأن بعض قادة الجيش العراقي في تلك المناطق قامت بارسال قواتها لمحاربة إيزيس، ولكن في أي من المدن التي تراجع فيها تأييدها للجيش في المناطق التي يهيمن عليها السنة ساهمت في انخفاض الروح المعنوية للجنود وتقاعدهم عن مواجهة قتال الجهادية . قد اشتهرت إيزيس بسمعتها الوحشية البشعة ضد الشيعة -هو فرع من تنظيم القاعدة الا أن حتى تنظيم القاعدة تبرأ منه - اضاف هذا إلى خوف قوات الفارين .

أظهرت التقارير تنفيذ إيزيس القتل علي المئات من الشيعة وجنود الجيش العراقي العزل كما سبق القبض على مجموعة كبيرة من الناس قتلوا بوحشية في سوريا . يأتي سفك الدماء هذا على رأس عدد كبير من الأعمال الوحشية التي ارتكبت في العراق من قبل الميليشيات السنية ضد الشيعة والعكس صحيح من قبل الشيعة ضد السنة في السنوات الأخيرة.

ولكن، في حين أن محاولة غزو بغداد قد لا يكون ممكنا في المدى القصير، فمن غير المرجح أن تستطيع قوات الحكومة العراقية استعادة السيطرة على جميع المناطق الآن في أيدي الميليشيات التي يقودها السنة أو البيشمركة الكردية. بعض المدن تغيرت السيطرة عليها -استعاد جيش المالكي اثنين شمال بغداد -ولكن فشلت قوات الحكومة في استعادة السيطرة على الفلوجة بواسطة قصفها منذ ان استولت عليها إيزيس في يناير من هذا العام .

أما بالنسبة لكركوك، يخوض قادة منطقة شبه الحكم الذاتي الكردية معركة منذ فترة طويلة مع وزراء المالكي حول من سيستفيد من إنتاج النفط في المنطقة، ومعركة أنهم سيرحبون بانهائها من خلال إبقاء السيطرة على كركوك كجزء من خطوات أخرى نحو الاستقلال الفعلي .

إيزيس

إيزيس، مع العديد من المقاتلين الجهاديين الاجانب في صفوفها وعدد متزايد مستمد من السكان المحليين، وفرض أحكام الاسلاميين اليمينية القمعية في منطقة الرقة في سوريا ويريد تمديد هذه لتكوين الخلافة الاسلامية وربط المناطق التي تهيمن عليها في العراق وربما في نهاية المطاف ربطها مع أجزاء من لبنان والأردن. أعلن قادتها نهاية الحدود بين العراق وسوريا -الدول التي وضعت في اتفاق 1916 بين الإمبريالية البريطانية والفرنسية التي قسمت غنائم الإمبراطورية العثمانية بين تلك القوتين.

الصحفي روبرت فيسك، من بين آخرين، قد ذكر أن إيزيس لديها دعم مالي من دول الخليج الغنية، بما في ذلك أعضاء من النخبة السعودية المجاورة، الذين هم حلفاء الولايات المتحدة ولكن يودون أنهاء سيطرة الشيعة علي بغداد .في سوريا زادت إيزيس ثروتها من خلال فرض الضرائب والخطف والابتزاز وغيرها وقد ضبطت الآن مبالغ ضخمة من المال من البنوك المأسورة في الموصل وكميات كبيرة من الأسلحة خلفها الجيش العراقي -معظمها قدمت من الولايات المتحدة.

وقد حاول بعض قادة إيزيس عدم استعداء الناس في المناطق التي تحت سيطرتهم، والبعض الآخر أصدر على الفور مراسيم الشريعة التي تقول بان اللصوص ستم قطع أيديهم و علي النساء تغطية أجسادهن وتجنب مغادرة منازلهن، وحظر الأحزاب السياسية، وغيرها من القوانين الرجعية. غرست هذه الإعلانات الخوف في كثير من السكان، بما في ذلك العديد من السنة الذين كانوا يأملون في البداية أن تقوم إيزيس على الأقل بحمايتهم من التمييز والاعتقالات والتعذيب التي تعرض لها السنة من قبل حكومة المالكي .

تداعيات

وعموما، فإن التحول الأخير للأحداث تسبب في مزيد من المعاناة الرهيبة للشعب العراقي بغض النظر عن الجالية التي ينتمون لها واحتمال تصاعد التقسيم الطائفي يهدد أيضا بمزيد من تدخل البلدان المحيطة بها، بما في ذلك تركيا التي واجهت بالفعل عمليات الخطف والاحتجاز لعدد من أفراد الشعب التركي على يد إيزيس وعلاوة على ذلك لا تريد أن نرى دولة كردستان المستقلة .

علاوة على ذلك، مرة أخرى، هناك توتر بشأن إمدادات النفط والاقتصاد العالمي، وتنمو المخاوف من توقف محتمل لحقول النفط الكبيرة في جنوب العراق .

الخطر الكبير الآخر في جميع أنحاء العالم يكمن في عودة المئات من الجهاديين المصدومين إلى ديارهم في نهاية المطاف من الحرب الصلبة الذين ذهبوا للقتال في سوريا والعراق -من بلدان بعيدة واسعة بما في ذلك المملكة العربية السعودية وروسيا وبريطانيا. لا نرى حتى الآن بديل للنظام الرأسمالي المتعفن سوى محاولة لإعادة عقارب الساعة إلى الوراء إلى أيام الاضطهاد الإقطاعي، إخضاع النساء، الفقر المدقع والعدالة الناجزة، وهناك خطر متزايد من الهجمات الإرهابية التي تصل معهم .

الطبقة العاملة من السنة والشيعة والأكراد والقوميات الأخرى والجماعات العرقية والدينية في العراق ليس لديهم أي مكاسب من أي من مروجي الصراع الطائفي، من أي قطاع . بض من السنة العراقيين قد رفضوا من قبل إيزيس ودفعوهم للخروج من جالياتهم وكثير منهم بفزع الآن من أفعال إيزيس . هناك غضب واسع النطاق بين الشيعة من فساد المالكي والطائفية . السنة والشيعة والأكراد على حد سواء يعانون من انعدام الأمن المستمر، وانعدام الخدمات الأساسية ومستويات المعيشة الفقيرة .

وقد حدث ان هناك عدة مرات تاريخيا عندما عبر الناس في العراق عن رغبتهم في الوحدة ضد الانقسام، مثل في أبريل 2004 عندما تظاهر 200,000 من الشيعة والسنة في بغداد ضد الاحتلال بقيادة الولايات المتحدة. بناء قاعدة شعبية من المنظمات الديمقراطية، الطبقة العاملة الغير طائفية أمر ضروري، لتنظيم الدفاع عن جميع الطوائف وطرح برنامج مناهض للرأسمالية، باعتباره السبيل الوحيد لإظهار وسيلة للخروج من اراقة الدماء المستمرة والقمع والفقر .

أن هذا البرنامج بحاجة إلى تحدي وفضح المصلحة الذاتية والطمع من جميع القادة السياسيين والعسكريين الموالين للرأسمالية الذين

يقاتلون من أجل الهيمنة في جميع أنحاء العراق اليوم . ينبغي أن يفسر على انه من ضروري إزالتهم من السلطة واستبدالهم بممثلي العمال المنتخبين ديمقراطيا والذين سيدعون للتوصل إلى حل من خلال الاشتراكية، التي تلبي مصالح جميع العمال والفقراء.

الحزب الاشتراكي واللجنة الدولية للعمال (CWI) يدعم حق تقرير المصير لجميع الجنسيات والجماعات المضطهدة، ولكن نشير إلى أن الدول الناتجة لن تكون قابلة لإنتعاش اقتصاديا ما لم ترتبط في اتحاد اشتراكي طوعي، في هذه الحالة من شعب العراق وشعوب المنطقة. فقط على هذا الأساس يمكن تحقيق التعاون الذي يمكن من رفع مستويات المعيشة للجميع، واستخدام أفضل لجميع الموارد الطبيعية لصالح الجميع.